

من هو ذلك الذي يشرف على المخطوطات ؟

الدكتور محمد طريف السمان

أمين المطبوعات والمخطوطات العربية
في المكتبة الوطنية التمسوية - فيينا

التراث المخطوط يا إخواني هو الثروة الفكرية الثابتة القيمة التي خلقها لنا أجدادنا من العلماء ورفعوا أثمانها بما هو أعلى من الذهب والفضة. رفعوا ثمنها بعصارات أدمغتهم وأذهبوا في خطها جل أوقاتهم، فكانت تركتهم لنا من أئمن التركات وأكثرها نفعا، ليس للمسلمين فحسب وإنما للعالم كله مشرقه ومغربه.

وإن كانت مخطوطاتنا قد التهمت نيران الغزوات، وابتلعتها مياه دجلة وبردى أثناء الحروب، وإن ضاع وأهمل الكثير منها خلال الاحتلال العثماني، وسرقات المستعمرين بأمر الإنجليز والفرنسيين أيام الاحتلال، فإن ما تبقى منها في خزاناتنا العامة والخاصة لجدير بالعناية والحرص والدراسة.

أناشدكم هنا يا إخواني وأرجو المسؤولين باتخاذ ما يلزم من الإجراءات وبأسرع ما يمكن لمنع تصوير وإخراج هذا التراث الثمين من بلادنا. إذ أنه لازالت تعرض مخطوطاتنا العربية الإسلامية حتى اليوم على تجار الآثار وبيوتات المزاد العلني وهواة المخطوطات في الغرب. إن القيمة التي يدفعونها للحصول على مخطوطاتنا ولو كانت مغرية لبائعها إلا أنها تبقى دائما دون القيمة الحقيقية بكثير. وخاصة إذا عرفنا بأن المشتري الغربي اليوم يعرف جيدا القيمة الحقيقية لما يشتريه ويقتنيه، وندر من يشتري تراثنا ليقراه، إنهم يشترونه ليدخروا أموالهم أو ليضاعفوا أرباحهم، وخاصة في السنوات الأخيرة بعدما انخفضت الفوائد في البنوك وقلت أثمان الأسهم في الشركات بعد موجات الإفلاس المتوالية التي حدثت ولاتزال.

دخلت عن قريب متجرا لبيع الآثار لأسأل عن ثمن مخطوط معروض للبيع،

فوجدته مفكك الأوراق ناقص الصفحات في عدد من الأماكن وعندما سألت البائع عن النواقص أخبرني بأنه باع فقط الورقات المزخرفة وذات الرسوم المذهبة من المخطوط. وهذه حادثة يا إخواني ليست نادرة.

وإذا نظرنا إلى المتبقي من تراثنا اليوم، نراه في كثير من الأحوال يعاني الأمرين، فهو مهمل في إحدى الزوايا، موكل عليه من لا يفقه قيمته، بل يزيد في إتلافه إن كان جاهلا له، فيتركه متراكما تعبت فيه الحشرات، وتسير فيه عفونة الرطوبة، أو تفتته حرارة المكان، ويهت أسطره ما يسطع عليه من نور. وهكذا تعامل معاملة الجاني.

أقول الجاني الخطر، إذ لازلت أذكر كلمات مدرس مستعار بعد انقضاء سنين الاحتلال الفرنسي وأثناء دراستي الثانوية، عندما قال لنا المدرس موعظا محذرا في أسباب تخلف العرب: «إذا أردنا التقدم والتطور لبلادنا فما علينا إلا رمي الكتب الصفراء القديمة بعيدا (وكان يعني المخطوطات)، ودراسة العلوم الناشئة الحديثة التي انتهى إليها الأوروبيون».

إن مثال هذا المرئي للنشء الحديث يا إخواني ليس بالقليل، فلا نستغرب جهل البعض وحقده على القديم من التراث. وقد يكون من هؤلاء من أوكل إليه أمر المخطوطات فيهملها إن لم أقل يعدها قبل أن ينظر فيها.

لذا فالقائم على أمور المخطوطات لا بد أن يكون ممن عنده الرغبة للتعامل معها أولا، ولديه مؤهلات تتناسب والعمل الذي سيقوم به ثانيا.

ونحمده تعالى على التفاتة بعض الحكومات في بلادنا المجيدة، إذ جعلت دورات خاصة وفروعا جامعية لتدريس وتدريب من سيقوم على الخزائن ودور الوثائق وإدارة شؤونها وتنظيمها وفهرستها وبالتالي إغنائها.

إلا أن إعداد أمناء المخطوطات ومحافظي خزائنها يختلف تماما عن إعداد العاملين في خزائن المطبوعات ومجامع المخطوطات (الأرشيف)، فعليهم توسيع أفق معرفتهم لا بدراسة أو دورات إضافية فحسب بل بالاطلاع على أحدث ما توصل إليه هذا الفرع من العلوم وقراءة الجديد فيه، في الكتب والمجلات الخاصة.

وإعداد المتعاملين بالمخطوطات يختلف من بلد إلى آخر، ففي أوروبا مثلا تنظم دورات إضافية خاصة لذلك، والتأهيل لهذا العمل يكون حسب الدرجات

العلمية، والشهادات المدرسية، علاوة على دراسة علم تنظيم الخزائن. إذ تجعل هناك دورات وندوات خاصة لهذه الغاية تعقد كل سنتين في بلد ما للتدارس والتباحث في قضايا المخطوطات، وتطوير التعامل معها ثم إيجاد الحلول للمعقد في أمور تصنيفها وصيانتها والاستفادة منها.

فتأهيل العاملين في خزائن المتسا مثلا يستمر عامين تامين. وقبل الابتداء بالعمل بالخزانة يتلقى المقبلون (شروط ومؤهلات خاصة) موادا علمية هامة منها: تاريخ نشوء وتطور الكتاب حتى الطباعة الحديثة، مع تاريخ وتطور أدوات الكتابة. ثم تاريخ تطور المخطوط وأشكالها، وتاريخ فنون تجليد الكتاب، إلى جانب علوم البيبليوغرافيا والمصادر والمراجع التاريخية حتى طرق الفهرسة والصيانة والترميم والإدارة وغيرها، مع تدريب عملي مكثف أثناء وبعد الدروس النظرية.

وقد فاتني أن أذكر إلى جانب الرغبة والاهتمام من قبل المتعامل مع التراث المخطوط أن تكون الأمانة من صفاته الأولى. إذ كم فقد من المخطوطات قبل تسجيلها، وكم اقتلع من ورقات منمنمة مذهبة، واختلت أجزاء هامة من مجموعة مخطوط، لا من المطالعين فحسب بل من المشرفين والعاملين في الخزانة أنفسهم.

بسبب الاختصاصات العلمية اليوم، والمؤهلات الإدارية إلى جانب الهوايات والاهتمام الشخصي نود أن نجد اليوم إنسانا يستطيع تولى إدارة شؤون المخطوطات أو خزانة بشكل عام كما كان عليه الحال في القديم، إذ كان محافظ الخزانة ملما بشكل جيد بجميع المعارف والعلوم، وقد يكون من العلماء البارزين، والتاريخ يحدثننا عن أسماء لامعة من الفقهاء العلماء، والوزراء الذين تولوا إلى جانب عملهم مسؤولية إدارة خزانة الخليفة منذ العصر العباسي وما بعده، حتى عصور الانحطاط في المشرق والمغرب، ثم انتقلت هذه العادة بانتخاب أمين الخزانة إلى أوروبا، إذ توالى مثلا على خزانة فيينا من فيهم الطبيب العالم، والشاعر الأديب، والحقوقي الفيلسوف، وكان فيهم مستشرقون اختارهم القيصير لإغناء الخزانة بالمخطوطات العربية، وإليهم يعود الفضل بما هو موجود الآن من نوادر المخطوطات العربية بالخزانة الوطنية النمساوية.

وبتفرغ العلوم وتجزئتها وبدء عصر الاختصاص، أصبح من الضروري توزيع مهام الخزانة بين المتخصصين في شتى العلوم المختلفة، على أن يكونوا ممن يتقنون عددا من اللغات وأتموا دراستهم الجامعية بفرعين اثنين من العلوم. وهنا لا بد لي من

ذكر معهد البحوث التاريخية المساوي الدولي التابع للجامعة، والذي يخرج كل ثلاث سنوات عددا قليلا من المختصين لاستلام الإدارات والمناصب الكبرى في الخزائن والمتاحف ودور المحفوظات (الأرشيف) ومثيلتها ممن يتقنون قراءة المخطوط واللغات القديمة إلى جانب عدد من اللغات الحديثة ويخضعون قبل قبولهم في هذا المعهد إلى شروط خاصة منها أن يكونوا من حملة شهادة الدكتوراه وغير ذلك من العقبات العلمية.

أطلقت في تمهيدي بعض الشيء لأبين ضرورة امتلاك بعض المؤهلات التي لا غنى عنها من أجل التعامل مع المخطوطات. إذ أن المشرف الأول عليها هو الذي سيرسم الطريق الضيق أو الواسع الذي سيسير ومساعدته عليه في تدبير سياسة الخزانة. إنه هو الذي ييث فيما أراد فقط الحفاظ على مجموعته من التراث المخطوط أم يرغب بأن يقتني عليها ويزيد في عددها. ولاشك أن الخزانة الحية هي التي تنمو باضطراد. واقتناء المخطوطات يجب ألا يقتصر في رأيي على فرع معين من العلوم، بل يفضل شراء كل ما يرد ويعرض على الخزانة وهذا يتعلق طبعاً بالخصصات المالية. وغالبا ما تكون هذه محدودة لهذا الغرض، وهنا يمكن التعاون بين عدد من الخزائن في البلد الواحد لشراء ما يعرض، ولكي لا يترك المجال لإخراج المخطوطات من الوطن. وقد يتسنى للمسؤولين بل يجب عليهم عمل ما يلزم لتوعية الشعب عن طريق الإذاعة والصحافة والنشرات الخاصة إلى قيمة التراث المخطوط، وضرورة الحفاظ عليه وإهدائه أو بيعه أو توريثه للخزائن الوطنية قبل رميه بأثمان بخسة في أيدي الغرباء من السياح، الذين يبيعونه فيما بعد بأسعار خيالية في الخارج وينتقل تراثنا بدوره إلى خزائن أوروبا أو تشتت ورقاته في حوانيت تجار الآثار. والكل يعرف ما يعرض شهريا في دور المزاد العلني في عواصم أوروبا. وهناؤكد ضرورة إطلاع محافظي الخزائن على فهارس ونشرات دور المزاد العلني الدورية في كل مكان لمعرفة ما يباع من تراثنا ومصيره الذي يصير إليه، وقد يمكن لنا استرجاعه إن كان مسروقا وذلك حسب الاتفاقيات الدولية.

إن من المهام الأولى لمحافظ خزانة المخطوطات التنظيم والإشراف على الأعمال التقنية المكتبية من تسجيل وترقيم وختم المخطوط ثم ترميمه وتغليفه بالشكل الذي يحافظ عليه وعلى جلده أيضا كي لا يصاب من كثرة الإستعمال في المستقبل بضرر

أو تلف، وأحذر من استعمال الدوائن المصطنعة مثل النايلون. وإن السماح بإعادة المخطوط قبل إتمام ما ذكرت قد يؤدي إلى عواقب غير محمودة.

وفهرسة المخطوط هي من الأعمال الهامة في الخزانة، وتتطلب ثقافة وخبرة كبيرتين لذا يفترض أن تتم مباشرة من قبل المسؤول الأول لا من المساعدين. وإن ورقة توثيق ترفق دائما مع المخطوط برهنت مع فائدتها الكبرى بما يحصل للمخطوط، إذ أنها تحمل اسم كل مطالع وعنوان وتاريخ مطالعته واستفادته من المخطوط، وعلى هذه الورقة تتم كتابة الملاحظات من تصوير ونسخ وترميم وفقدان ورقات وغير ذلك.

وقد يتمكن المسؤول عن المخطوطات من مقارنة النسخة الجديدة مع مثيلاتها في الخزائن الأخرى داخل البلد وخارجه إن استطاع لتحديد القيمة التاريخية أو للتعرف على النص الكامل إن كانت نسخة ناقصة، وربما تكون مخطوطة وحيدة نادرة وهذا ما يزيد في قيمتها المادية والتاريخية. لذلك لابد من ترشيحها أو إدراجها في قائمة المخطوطات التي يجب أن تدرس وتحقق للنشر.

والمخطوطات النادرة أو المزخرفة والمذهبة يحرس على فصلها وحمايتها في مكان أكثر أمانة وملاءمة، ويحدد، بل يقتصر استعمالها على المختصين والعلماء فقط.

ولابد من أن يقوم أمين الخزانة باتخاذ الإجراءات اللازمة لتصوير جميع مخطوطاته في الخزانة على الأفلام المصغرة (ميكروفيلم)، الغايات كثيرة، أهمها سهولة وسرعة الاستنساخ لتلبية رغبة المطالعين، والمحافظة على النسخة المخطوطة كي لا يؤديها النور بتكرار التصوير، ومن ثم للحفاظ على النص على الأقل في حال فقدان النسخة الأصلية. وبهذه المناسبة أحذر من استنساخ المخطوط أو بعض صفحاته بالطريقة المباشرة السريعة على الناسخ الحديث Xerox مثلا، فهي تحد من عمر المخطوط وتفقد مع الوقت نور مدادها.

كما وأن تطور الطباعة التصويرية بالألوان توصلت إلى تعدد استعمالها في خزائن أوروبا، وخاصة المخطوطات المزخرفة والمصورة أو المذهبة النادرة، وهذه تدعى Facsimile فاكسيميله، فهي غالية التكاليف إلا أنها تعد من الطرق الناجحة في الحفاظ على المخطوط الأصلي الثمين، الذي يحفظ بشكل نهائي دائم، ويقدم بدلا عنه النسخة المصورة التي هي كالأصل بدون فارق للقراء والباحثين، كما وتتمكن

الخزائن الأخرى في العالم من شراء وامتلاك الفاكسيميله التي هي صورة صادقة عن الأصل. وبهذه الطريقة تم طبع أمهات المخطوطات في العالم من ضمنها نسخة القرآن الوحيدة لابن البواب المحفوظة في دبلن، والمجموعة الفريدة لكتاب الأدعية الذي صدر حديثا بعنوان الخيرات للجزولي، وكلاهما طبعا في غراتس بالنمسا بالمطبعة الأكاديمية. وأعتقد بأن هناك عشرات المخطوطات الثمينة من حيث نصوصها أو منمناتها وتزيينها بالذهب والألوان المنتشرة في خزائن العالم العربي وتستحق المحافظة على فنونها ورسومها بطبيعتها بهذه الطريقة الحديثة المصورة. وبانتشار الفاكسيميله للمخطوطات العربية تعرف العالم على فنون الكتب العربية الرفيعة التي تجهلها العامة في العالم الغربي.

وهناك نقطة هامة أريد أن ألفت نظر إخواني في خزائن المخطوطات إليها، وهي أن العدد الكبير من المخطوطات تبقى على الرفوف محدودة الإستعمال. ومن واجب المشرف على الخزانة بل من إحدى وظائفه التعريف بما تحويه خزائنه. وباعتقادي بأن الفهارس المطبوعة على الرغم من ضرورة إحدائها إلا أنها لا تفني بالغرض الذي أنا بصددده. فلا بد من نشر أبحاث ولو مختصرة على فحوى وخواص كل مخطوطة، وما تضم دفتيها من علم أو فن حتى لو تم ذلك بالتعاون مع المختصين والعلماء ومدرسي الجامعات.

وهنا تأتي وظيفة المعرض التي أعتبرها من المهام التي تقع على عاتق أمين خزانة المخطوطات. إذ عليه أن يهيء كل بضع سنوات معرضا لما تحويه خزائنه للتعريف بها، ويستحدث المناسبات لها علمية كانت أم تاريخية، ويضع للمعرض دليلا فيه أوصاف كل مخطوط، ويذكر ما هو معروف عن تاريخها وتاريخ مؤلفها مع تقييم لنصها، وهذا ينشط الاهتمام بالتراث. وقد يتمكن عدد من أمناء الخزائن بالتعاون على مثل هذه التظاهرة في المناسبات والأعياد القومية أو الدينية وغيرها، وحبذا لو التفت جميع الخزائن العربية إلى فوائد مثل هذه المعارض التي تنظم في أوروبا سنويا تقريبا، كما هو الحال في خزانة فيينا التي تعرض سنويا وتحت شعارات وعناوين مختلفة ما هو متوفر لديها من مخطوطات، وتنظم إلى جانبه عددا من المحاضرات التي توضح الموضوع المختار، فمثلا سيعرض في هذا الصيف، وبعنوان العالم العربي وأوروبا جميع المخطوطات العلمية والأدبية والفنية التي أثرت على أوروبا بطريق مباشر أو غير مباشر، أو التي ترجمت ودرست في جامعات الغرب،

وسيعرض إلى جانب المخطوطات العربية المخطوطات الأجنبية التي نقلت عنها. وقبل ثمانية أعوام اخترت موضوع الحضارة الإسلامية، وعرضت فيه مخطوطات تركية وفارسية إلى جانب العربية. فهذا مثل بسيط على ما يمكن عمله من أجل الثقافة العامة بواسطة المخطوطات «القديمة الصفراء التي قيل بعدم نفعها».

إن الغرب الإسلامي لغني جدا بالمخطوطات العلمية النادرة، وضمن مجموعاتها العدد الكبير الغير معروف، وقد يتسنى لإخواني المشرفين على هذا التراث إقامة معرض عربي إسلامي يعرفوننا على ما أنتجته هذه المنطقة من كنوز فنية وعلمية تفخر بها.

والمعروف لدى الجميع بأن الغرب الإسلامي له اليد الطولى في تطور فنون المخطوط العربية الإسلامي، وخاصة في استعمال الألوان والتذهيب، ويكفي أن يكون مولد الزخرف المورق الذي بهر فنان العالم، والذي يسموه أرابيسك Arabesk كان في هذا البلد. وحبذا لو وجهت عناية خاصة إلى تطوير ودراسة فنون الكتاب العربي القديم في شمال هذه القارة، وكلمة Maroquin في أوروبا الوسطى لا تعني الجلد والتجليد الممتاز للكتاب فقط، بل إنها تنطوي على الرمز المثالي لرفعة فن الكتاب في معناها الضمني.

ورجائي الآخر من إخواني العاملين والمشرفين على المخطوطات في الغرب الإسلامي إنشاط وتوسيع البحث في تطور الخط في هذه المنطقة فباحثي وعلماء الخطوط في أوروبا وحتى في العالم العربي لازالوا يتخبطون في آراء ونظريات حول الفروق بين الخط المغربي والخط الأندلسي، ثم بين هذين الخطين وخطوط بقية شمال إفريقيا. المصادر هنا كثيرة متوفرة ولا ينقصنا سوى دراسات وبحوث مركزة حول هذا الموضوع. وفي اعتقادي بأن المشرفين على الخزائن هنا لهم الكلمة الأخيرة في هذا البحث.